فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام

تأليف

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
المتوفى سنة ١٣٧٦هـ

اعتنى به وعلق عليه
أبو محمد أشرف بن عبد المقصود

أضواء السلف

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مكتبة أضواء السلف - لصاحبها علي الحربي

الرياض - شارع سعد بن أبي وقاص - بجوار بنده - ص ب ١٢١٨٩٢ - الرمز ١١٧١١

تلفون وفاكس: ٢٣٢١٠٤٥ - محمول ٠٥٥٤٩٤٣٨٥

الموزعون المعتمدون لمنشوراتنا

المملكة العربية السعودية : مؤسسة الجريسي . ت: ٤٠٢٢٥٦٤

مصر : مكتبة الإمام البخاري بالإسماعيلية ـ ت ٣٤٣٧٤٣ / ٠٦٤

باقي الدول : دار ابن حزم ـ بيروت ـ ت ٧٠١٩٧٤

فوائد مستنبطة من

قصة يوسف

عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمَة المعتني

إنَّ الحمد للَّه ، نَحْمَدُه ونستعينه ونستغفره ، ونعوذُ باللَّه من شُرور أَنْفُسِنَا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده اللَّه فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلل فلا هادي له . وأشهدُ أن لا إِله إِلَّا اللَّه وحده لا شريك لَهُ وأشهدُ أن مُحمَّدا عبده ورسوله ..

أما بعد : فهذه طبعةٌ جديدةٌ لكتاب « فوائد مُسْتَنبطة من قصة يوسف عليه السَّلام » للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، نقدمه لإخواننا المسلمين ضمن سلسلة اعتنائنا بمؤلفات هذا العالم النِّحرير .

نُقَدِّمه لهم في وقت أحوج ما يكونون فيه إلى اقتفاء القدوة الصالحة والأسوة الحسنة ، واستجلاء العبر والعظات مما جاء في قصص الأنبياء والمرسلين : ﴿ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُم اللَّهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِه ﴾ .

وهذه قصة نبي اللَّهُ يوسف عليه السلام الكريم بن الكريم الذي جمع اللَّه قصته جميعها في سورة واحدة وخصَّها بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧] .

ففيها : العبر للمعتبرين والزواجر للمتقين .

وفيها : بيان عاقبة الإخلاص والصدق ، والفرج بعد شدة الإياس .

---

(١) تراجع ترجمة مُفَصَّلَة للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ؛ وضعناها في مقدمة تحقيقنا لكتابه « منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين » ؛ فأغنى عن إعادتها هنا .

وفيها : القدوة للمؤمنين المخلصين !

وفيها : القدوة للصابرين المبتلين !

وفيها : القدوة لدعاة الناصحين المصلحين !

وفيها : القدوة للحكام العادلين !

وفيها : القدوة للشباب الطائع العفيف !

والمصنف رحمه اللَّه المُتَفَنِّن في تَقْريب العلوم وتَسْهيل تعليمها للناس نراه في هذا المصنف المختصر الوجيز النافع يجعله في صورة فوائد ؛ ليكون أبعد عن الملل ، وأقربُ إلى الفهمِ والتفهيمِ .

هذا وقد قُمت بضبط الكتاب وتنسيقه ، وترقيم فوائده ، وعزو الآيات وتخريج الأحاديث وغير ذلك مما يراه القارئ ؛ معتمدًا في ذلك على المطبوعة التي طبعت بمطبعة العلم سنة ١٣٧٥هـ ، وعلى النسخة المطبوعة تصويبات بقلم المصنف رحمه اللَّه .

سائلًا المولى جل وعلا أن ينفع به ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

وآخر دعوانا أَن الحمد للَّه رب العالمين .

الإسماعيلية ١ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ **أبو محمد أشرف بن عبد المقصود**

غفر اللَّه له ولوالديه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، وصلّى الله علىٰ محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم .

أمَّا بعد : فهذه فوائدُ مُستَنبطةٌ من قصَّةِ يوسف صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم وعَلَىٰ جَمِيع الأنبياء والمُرسلين .

فإنَّ اللَّه تعالى قصَّها علينا مبسوطةً ، وقال في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

والعبرة : ما يُعتَبرُ به ، ويُعبَرُ منه إلى معانٍ ، وأحكامٍ نافعةٍ ، وتوجيهاتٍ إلى الخيرات وتحذيرٍ من الهلكات .

وقَصَصُ الأنبياء كلُّها كذلك ، لكنَّ هذه القِصَّةَ خصَّها اللَّه بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧] .

ففيها : آياتٌ وعِبَرٌ مُنَوَّعةٌ لكلٍّ من يسأل ويُريد الهُدىٰ والرَّشاد .

لما فيها من التَّنقّلات من : حالٍ إلى حالٍ ، ومن محنةٍ إلى محنةٍ ، ومن محنةٍ إلى مِنْحَةٍ ومِنَّةٍ ، ومن ذلَّة ورقٍّ إلى عِزّ ومُلكٍ ، ومن فرقةٍ وشتاتٍ إلى اجتماعٍ وإدراك غاياتٍ ، ومن حُزنٍ وترحٍ إلى سرورٍ وفرحٍ ، ومن رخاءٍ إلى جَدْبٍ ، ومن جَدْبٍ إلى رخاءٍ ، ومن ضِيقٍ إلى سعةٍ[1] .

إلى غير ذلك ممَّا اشتملت عليه هذه القصَّةُ العظيمة .

---

(١) ذكر الفيروزابادي في كتابه « بصائر ذوي التمييز » (٦ / ٤٩) أن نبي الله يوسف مَحَنَهُ الله بعشر مِحَن ، وكافأه بعشر مِنَح . ثم سردها ، فلتراجع .

فتبارك من قصَّها ، ووضَّحها ، وبيَّنها .

(١) فمن فوائد هذه السُّورة : أنَّ فيها أُصُولًا لِعِلْم تعبير الرُّؤيا .

فإنَّ علم تعبير الرؤيا علمٌ عظيمٌ مهمٌّ ، مَبْنَاهُ على : حُسْن الفَهْم ، والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويَّات أو مَا يُنَاسبها ؛ بحسب حال الرَّائي وبحسب الوقت والحال المتعلِّقة بالرُّؤيا .

وقد أثنىٰ اللَّه على يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام بعلمه بتأويل الأحاديث ، تأويل أحاديث الأحكام الشَّرعيَّة ، والأحاديث المتعلِّقة بتعبير الرُّؤيا .

والفرق بين [الرؤيا الصحيحة و][1] الأحلام الَّتي هي أضغاث أحلامٍ لا تأويلَ لها ، مثل ما يراه من يفكر ويطيل تأمّله لبعض الأمور ، فإنَّه كثيرًا ما يرى في منامه من جنس ما يفكر به في يقظته .

فهذا النَّوع الغالب عليه أنَّه أضغاث[2]أحلامٍ لا تعبير له .

وكذلك نوعٌ آخر : ما يلقيه الشَّيطان على روح النَّائم من المرائي الكاذبة والمعاني المتخبطة ؛ فهذه أيضًا لا تعبير لها ، ولا ينبغي للعاقل أن يشغل بها فكرَه ، بل ينبغي له أن يُلهَى عنها .

وأمَّا الرُّؤيا الصَّحيحة : فهي إلْهامات يُلهِمُهَا اللَّه للرُّوح عند تجرُّدها عن البدن وقت النَّوم ، أو أمثالٌ مضروبةٌ ، يضربها المَلَك للإنسان ليفهم بها ما يناسبها .

---

(١) مابين المعقوفتين زيادة يستقيم بها السياق .

(٢) الأضغاث : جمع ، واحده ضِغْث ، والضغث : الحزمة من الحشيش المجموع بعضه إلى بعض أي تخاليط أحلام ومنامات باطلة .

وقد يرى الشَّيء على حقيقته ويكون تعبيره هو ما رآه في منامه .

فيوسف ﷺ أعطاه اللَّه من العلم ما يميِّز به بين المرائي الصَّحيحةِ والباطِلَةِ والحقِّ والباطل منها .

وهذه القصَّة فيها الدَّلالة على تعبير الرُّؤيا من وجوهٍ :

أحدها : رؤيا يوسف التي قصَّها على أبيه يعقوب ﷺ : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] .

ففسّرها يعقوبُ ﷺ بغاياتها ، وما تؤُول إليه ، وبوسائلها الَّتي تتقدَّم عليها .

ففسّر الشَّمس والقمر بـ : أبي يوسف وأُمِّه .

والكواكب الأحد عشر بـ : إخوته .

وأنَّ الحال سيكون مآلها أنَّ الجميع ليسجدون ليوسف ويخضعون له .

ولهذا لمَّا حصل الاجتماع ودخل أبوه وأُمُّه وإخوته مصر ، ورَفَع أبويه على العرش خرَّ الجميع له سجَّدًا ، وقال يوسف متذكِّرًا ذلك التَّعبير والتَّفسير : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠]

وهذا أمرٌ عظيمٌ تصل بيوسف الحال إلى أن يكون معظَّمًا تعظيمًا بليغًا عند أبويه وإخوته ، وكذلك عند النَّاس .

وهذه الغاية تستدعي وسائل ومقدِّماتٍ لا تحصل إلَّا بها ، وهو : العلم الكثير العظيم ، والعمل الصَّالح ، والإِخلاص ، والاجتباء من اللَّه ، والقيام بحقِّ اللَّه ، وحقوق الخلق .

فلهذا قال في ذكر السَّبب الموصِّل لهذه الغاية الجليلة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٦] .

يعني : لابدّ أن يُتِمَّ اللَّهُ عليك نعمتَه بتعليم العلوم النَّافعة والأعمال الصَّالحة ، والاجتباء من اللَّه ، وحُصول الأخلاق الجميلة ، والمقامات الجليلة ، فبَشَّره بحصول هذه الأمور ، ثُمَّ بالوصول إلى الرِّفعة في الدُّنيا والآخرة .

وفي ضمن هذا التَّعبير من يعقوب ليوسف بشارةٌ له وتسهيلٌ لما سَيَنالُه من المشقَّات والكُرُوب مع إخوته ، وفي السِّجن ؛ فإنَّ من علم أنَّ المكاره والمشقَّات تُفْضِي إلى الخير والرَّاحات ؛ تَسَلَّىٰ وهَانَت عليه مشقَّتها ، وسهلت عليه وطأتها ، وحصَّل بذلك من اللطف والرَّوح بشيءٍ عظيمٍ .

وهذا من جملة اللطف الَّذي أشار إليه يوسف في قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] [(١)] .

وهذا من مقتضى حكمة اللَّه أنَّ المراتب العاليات لا تُنالُ إلَّا بالوسائل الجليلة ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٦] .

ومن فوائد هذا التَّعبير لرؤيا يوسف : بشارةٌ عظيمةٌ ليعقوبَ وأمِّ يوسفَ وإخوته بحصول الرِّفعة والصَّلاح والخير .

---

(١) للمصنف رحمه الله كلام نفيس حول لطف الله تعالى وأسراره في كتابه « المواهب الربانية من الآيات القرآنية » ص (٧٠ — ٧٨) .

فيعقوبُ ﷺ من أكابر الأنبياء وأفاضل الأصفياء .

وأُمُّه لها من الخير والصَّلاح والرِّفعة في الدُّنيا والآخرة حيث شُبِّهت بالشَّمس أو بالقمر ، على اختلاف القولين .

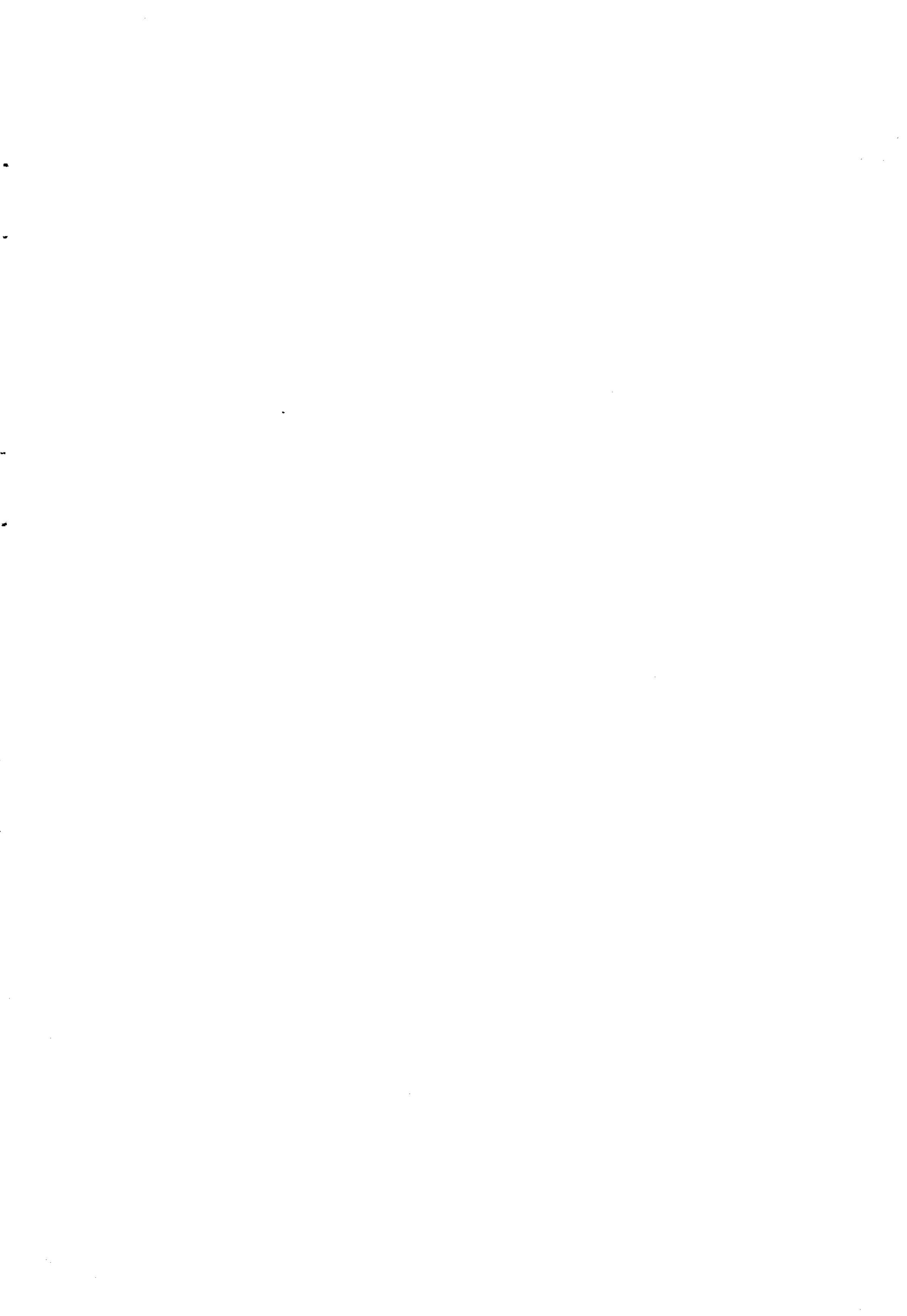
وإخوة يوسف وإن كان قد جرى منهم في حقِّ أبيهم وأخيهم من الأذِيَّة والعُقُوقِ والقطيعة ما جرى ولكنَّ أباهم وأخاهم عَفَيا عنهم ، واستغفر اللَّه لهم ، واللَّه تعالى أرحم الرَّاحمين .

فالشَّمس والقمر والنُّجوم تضمّنت النُّور والارتفاع ، ولكنَّها متفاوتةٌ في نورها بحسب التَّفاوت بين الأبوين وبين الإِخوة .

فالحاصل : أنَّ هذه الرُّؤيا تضمَّنت ما حصل ليوسف ﷺ من خير الدُّنيا والآخرة ، والمقامات العظيمة ، والوَسَائِل ، والمنن الَّتي أوردتها هذه الأمور وما حصل لأبويه وإخوته من مشاركته في خير الدُّنيا والآخرة ، واللَّه تعالى أعلم[١] .

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

(١) للمصنف رحمه الله كلام على فوائد القصة أيضًا : في تفسيره لسورة يوسف في تفسيره : « تيسير الكريم المنان » فليراجع .



الفصل الأوَّل

وأمَّا رؤيا الفتيَيْنِ

حيث قال أحدهما : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

فتلطَّفوا ليوسف أن يبلِّغهُمَا بتأويل رؤياهما لما شاهدوا من إحسانه للأشياء وإحسانه إلى الخلق .

* ففسَّر رؤيا من رأى أنَّه يعصر خمرًا : أنَّه ينجو من سجنه ويعود إلى مرتبته وخدمته لسيِّده ، فيعصر له العنب الَّذي يؤُولُ إلى الخمر .

* وفسَّر رؤيا الآخر : فيُقتَلُ ثم يُصلَبُ فتأكل الطَّير من رأسه .

فالأوَّل : رؤياه جاءت على وجه الحقيقة .

والآخر : رؤياه جاءت على وجه المثال وأنَّه يُقتَلُ ، ومع قتله يُصلَبُ ولا يُدفَنُ حتَّى تأكل الطُّيور من رأسه .

وهذا من الفهم العجيب والغوص على المعاني الدَّقيقة ، وذلك أنَّ العادة أنَّ المقتول يُدفَنُ في الحال ولا تتمكَّن السِّباع والطُّيور من الأكل منه .

ففهم أنَّ هذا سيُقتَلُ ولا يُدفَنُ سريعًا حتَّى يصل إلى هذه الحال ، وفي هذا من فضيحته وخزيته وسوء مصيره الدُّنيويِّ ما تقشعرُّ منه الجلود .

وحيث عَلِمَ أنَّ هذه الرُّؤيا صحيحةٌ ، لابدَّ من وقوعها ، قال لهما : ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : ٤١] . وهذا من كمال علمه للتَّعبير الَّذي لا يُعبِّرُ عن ظنٍّ وتوهُّمٍ ، وإنَّما يعبِّرُ عن علمٍ ويقينٍ .

وأمَّا المناسبة في ذلك : في أنَّ الطُّيور لا تقرب الحيَّ وإنَّما تتناول الميِّت إذا لم يكن عنده أحدٌ ، وهذا إنَّما يكون بعد قَتْله وصَلْبه .

ومن كمال يوسف ونُصْحِه وفِطْنته العجيبة : أنَّهما لما قصَّا عليه رؤياهما تأنَّى في تعبيرها ووعدهما بتعبيرها بأسرع وقتٍ ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف : ٣٧] .

فوعدهما بتعبيرها قبل أوَّل طعامٍ يأتيهما من خارج السِّجن ليطمئنا ويشتاقا إلى تعبيرها ، وليتمكَّن من دعوتهما قبل التَّعبير ليكون أدعىٰ لقبول الدَّعوة إلى اللَّه ؛ لأنَّ الدعوة لهما إلى اللَّه أهمُّ من تعبير رؤياهما .

فدَعَاهُمَا إلى اللَّه بأمرين :

أحدهما : بحاله وما هو عليه من الوَصْف الجميل الَّذي أوصله إلى هذه الحال الرَّفيعة ، بقوله : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧ ، ٣٨] .

الأمر الثَّاني : دعاهما بالبرهان الحقيقيِّ الفِطريِّ ، فقال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩ ، ٤٠] .

فإنَّ من توحَّد بالكمال من كُلِّ وجهٍ ، وبالقهر للعالم العُلويِّ والسُّفليِّ

المستحقّ للألوهيّة الكاملة ، الَّذي خلق الخلق لعبادته وأمرهم بها ، وله الحكم على عباده في الدُّنيا والآخرة هو الَّذي لا ينبغي العبادة إلَّا له وحدَه دون المعبودات النَّاقصة المتفرِّقة ، الَّتي كُلُّ قومٍ يدَّعون إلهيَّتها ، وليس فيها من معاني الإلهيَّة شيءٌ ولا استحقاقٌ ، وإنَّما هي أسماءٌ اصطلحوا على تسميتها ؛ أسماء بلا معانٍ ، فرأى ﷺ دعوتهما إلى اللَّه أولى بالتَّقديم على تفسير رؤياهما وأنفع لهما ولغيرهما .

○ ○ ○ ○

الفصل الثَّاني

وأمَّا رؤيا الملك

فإنَّه رأىٰ سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبعُ بقراتٍ عجافٍ ، وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ يأكلهنَّ ويستولي عليهم سبعُ سنبلاتٍ ، يابساتٌ ضعيفاتٌ ، فهالته !! وجمع لها كلَّ من يظنُّ فيه المعرفة ، فلم يكن عند أحدٍ منهم علمٌ بتعبيرها ، وقالوا : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ [يوسف : ٤٤] .

وبعد هذا تفطَّن الَّذي خرج من السَّجن لحالة يوسف وما هو عليه من العلم العظيم والعلم بالتَّعبير ، وتفطَّن لوصيَّته الَّتي أنساه الشَّيطان ذكر ربِّه لحكمةٍ قد فصح أمرها ، وأنَّه لا يخرج من السِّجن إلَّا بعد اشتهاره وتميُّزه العظيم على النَّاس كُلِّهم بتعبير رؤيا الملك ، فطلب هذا الرَّجل من الملك أن يرسله إلى يوسف ، وأنَّه كفيلٌ بمعرفة تفسيره فلمَّا جاء يوسف قال له : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ [يوسف : ٤٦] .

فإنَّ الملك والنَّاس معه أرسلوني إليك لتفسِّرها لهم وهم في انتظار ذلك متشوِّقين إليه غاية التَّشوُّق ، ولهذا قال : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٦] ما أهمَّ الملك وأزعجه ولاعه .

ففي الحال فسَّرها يوسف ﷺ ، وزادهم مع التَّفسير حسنَ العمل بها وحسن التَّدبير .

فأخبرهم أنَّ البقر السِّمان والسَّنابل السَّبع الخضرات هي سنون رخاء وخصب مُتَواليات تتقدَّم على السِّنين المجدبات ؛ وأنَّ البقر العجاف والسَّنابل اليابسات سنون جدبٌ تليها ، وأنَّ بعد هذه السِّنين المجدبات عامٌ فيه يُغاثُ النَّاس وفيه يعصِرون .

وأنَّه ينبغي لهم في السِّنين المخصبات أن ينتهزوا الفرصة ويعدُّوا العُدَّة للسِّنين الشَّديدات ، فيزرعون زروعًا هائلةً أزيد بكثيرٍ من المعتاد .

ولهذا قال : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ [يوسف : ٤٧] .

ومن المعلوم : أنَّ جميع السِّنين يزرع النَّاسُ ، لكنَّه أراد منهم أن يزرعوا زُروعًا كثيرةً ويبذلوا قُواهم في كُلِّ ما يقدرون عليه ، وأنَّهم يحتاطون في الغلَّات إذا حصلت بالتَّحصين والاقتصاد ، فقال : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧] .

أي احفظوا الحاصلات من الزَّرع حفظًا تسلَمُ به من الفساد والسُّوس بأن تبقى في سنابلها ، ويقتصدون في هذه المدَّة مدَّة الرَّخاء فلا يسرفون في الإِنفاق ، بل يأكلون القليل ويحفظون الكثير .

وإنَّ بعد هذه السِّنين المخصبات سيأتي عليكم سبعُ سنين مجدباتٍ شديداتٍ ، تشمل الدِّيار المصريَّة وما حولها ، وإنَّها تأكل ما قُدِّم لها ممَّا حُفِظَ في سنين الخصب ﴿ إلَّا قليلًا ممَّا تُحْصِنُونَ ﴾ .

ووجه المناسبة : أنَّه كما تقدَّم أنَّ الرُّؤيا تُعبَّرُ بحال رائيها ، والمناسبات المتعلِّقةِ بها فكالرائي لها الملك الذي تتعلَّق به أركان الرَّعيَّة وأمورُها ، ولهذا كانت رؤياه ليست خاصَّةً له ، بل تشمل النَّاس والرَّعيَّة .

ووجه المناسبة في تفسير البقرات والسّنابل بالسّنين ظاهرًا في البقر **من وجهين** :

أحدهما : أنّها هي الّتي في الغالب يُحرَثُ عليها الأرض ، والحروثُ والزُّروعُ وتوابعها تبعٌ للسّنين في خصبها وجدبها .

والوجه الثّاني : البقر من المواشي الّتي سِمَنُها وعِجَفُها تَبَعٌ للسّنين أيضًا فإذا أخصبت سمنت وإذا جدبت عجفت وهَزُلَتْ ؛ وكذلك السّنابل تزهو الزُّروع وتكمل وتنمو مع كثرة الماء والسّنين المخصبات ، وتضعف وتيبس مع السّنين المجدبات ، فكانت رؤياه في البقر والسّنابل من أوصاف السّنين وآثارها ومن ذكر الوسائل والغايات .

فالحرث للأراضي وسيلةٌ ، ونموُّ الزَّرع وحُصُول السِّمنِ في المواشي هو لغاية من ذلك والمقصود .

وأمّا قوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٩] .

أي يحصل للنّاس فيه غيثٌ مُغيثٌ ، تعيد الأراضي خصبها ، ويزول عنها جدبها ، وذلك مأخوذٌ من تقييد السّنين المجدبات بالسّبع ؛ فدلَّ هذا القيد على أنّه يلي هذه السّبع ما يزيل شدَّتها ، ويرفع جدبَها ؛ ومعلومٌ أنَّ توالي سبع سنين مجدبات لا يُبقي في الأرض من آثار الخضر والنّوابت والزّروع ونحوها لا قليلًا ولا كثيرًا ، ولا يرفع هذا الجدب العظيم إلّا غيثٌ عظيمٌ ؛ وهذا ظاهرٌ جدًّا ، أخذه من رؤيا الملك .

ومن العجب أنَّ جميع التّفاسير الّتي وقفتُ عليها لم يذكروا هذا

المعنى ، مع وضوحه .

بل قالوا : لعلَّ يوسف ﷺ جاءه وحيٌ خاصٌّ في هذا العام الَّذي فيه يُغَاثُ النَّاسُ وفيه يعصرون . والأمر لا يحتاج إلى ما ذكروه ، بل هو ولله الحمد ظاهرٌ من مفهوم العدد ، وأيضًا ظاهرٌ من السِّياق . فإنَّه جعل هذا التَّعبير والتَّفسير توضيحًا لرؤيا الملك .

ثمَّ اعْلم أنَّ رُؤيا الملك وتعبير يوسف لها وتدبيره ذلك التَّدبير العجيب من رحمة اللَّه العظيمة عَلَىٰ يُوسُفَ وعَلَىٰ المَلِك وعَلَىٰ النَّاس .

فلولا هذه الرُّؤيا وهذا التَّعبير والتَّدبير لهجمت على النَّاس السِّنون المجدباتُ قبل أن يُعِدُّوا لها عُدَّتها فيقع الضَّرر الكبير على الأقطار المصريَّة وعلى ما جاورها ، فصار ذلك رحمةً بهم وبغيرهم من الخلق .

ألا ترى كيف شمل الجدب البلادَ المصريَّة وشمل البلاد الشَّاميَّة وفلسطين وغيرها حتَّى احتاجوا إلى الاكتيال من مصر ، واحتاج يوسف أن يُقَدِّر للجميع ، ويُوزِّعَ عليهم توزيعًا عادلًا فيه الرِّفق بالجميع والإبقاءُ عليهم ؟

وكان هذا العِلْم العظيم من يوسف هو السَّبب الأعظم في خُروجه من السِّجن ، وتقريب الملك له من اختصاصه به ، وتمكينه من الأرض ، يتبوَّأ منها حيث يشاء ، وهذا من إحسانه ، واللَّه لا يضيع أجر المحسنين .

ومع هذا الفضل فضلُ اللَّه أعظم من ذلك ، يصيب برحمته من يشاء ممَّن يختاره ، ويختصُّ ويجمع له خير الدُّنيا والآخرة .

○○○○

الفصل الثَّالث

ومن فوائد هذه القِصَّة

(٢) أنَّه يتعيَّنُ على الإنسان أن يَعدِلَ بين أولاده[١] .

وينبغي له إذا كان يحبُّ أحدَهم أكثرَ من غيره أن يخفيَ ذلك ما أمكنه وأن لا يفضِّله بما يقتضيه الحبُّ من إيثارٍ بشيءٍ من الأشياء ، فإنَّه أقرب إلى صلاح الأولاد ، وبِرِّهم به ، واتِّفاقهم فيما بينهم .

ولهذا لما ظهر لإخوة يوسف من محبَّةِ يعقوب الشَّديدةِ ليوسف وعدم صبره عنه وانشغاله به عنهم ؛ سَعوا في أمرٍ وَخِيم ، وهو التَّفريق بينه وبين أبيه ؛ فقالوا : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف ٨ ، ٩] .

وهذا صريحٌ جدًّا أنَّ السَّبب الَّذي حملهم على ما فعلوا بيوسف من التَّفريق بينه وبين أبيه هو تميُّزه بالمحبَّة ، خلاف ما ذكر كثيرٌ من المفسِّرين أنَّ يوسف أخبرهم برؤياه فحَسَدُوه لذلك ـ فإنَّه منافٍ للآية الكريمة وسوء ظنٍّ بيوسف حيث استكتمه أبوه فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ

---

(١) وفي الحديث عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً فَقَالَتْ : عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً ، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ » . قَالَ : فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ .
البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣) (١٣) .

عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف : ٥] .

فيوسف أبرُّ وأعقلُ من أن يخبرَهُم بها ، ولكن كثيرٌ من الإسرائيليَّات تُرَوَّجُ على كثيرٍ من النَّاس ، مع أنَّ أقلَّ تأمُّلٍ في النُّصوص الشَّرعيَّة يعلِمُهُم ببطلانها

والمقصود : أنَّ الَّذي حمل إخوة يوسف على ما فعلوا هو تمييز يعقوب ليوسف ؛ ومع هذا فلا يحلُّ هذا الأمر الشَّنيع . وهم يعلمون أنَّه لا يحلُّ لهم ، ولكنَّهم قالوا : افعلوا هذا الجرم العظيم وتُوبوا إلى اللَّه بعده .

فلهذا قالوا : ﴿ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] .

وهذا لا يحلُّ أن يواقع العبد الذَّنب بأيِّ حالةٍ يكون ، ولو أضمر أنَّه سيتوب منه ، فالذَّنب يجب اجتنابه فإذا وقع وَجَبَت التَّوبة منه .

ولعلَّ من حكمة اللَّه ورحمته بيعقوب ما قدَّره عليه من الفُرقة الَّتي أحدثت له من الحزن والمصيبة ما أحدثت رفعة لمقاماته في الدُّنيا والآخرة ؛ ولتكون النِّعمةُ عند حصول الاجتماع لها الموقع الأكبر والشُّكر الكثير والثَّناء على اللَّه بها ؛ وليصل ولدُه يوسف إلى ما وصل إليه من المقامات الجليلة ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

* * * *

(٣) ومن الفوائد : الحَثّ على التَّحرُّز ممَّا يُخشَىٰ ضرُّه .

لقوله : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف : ٥] .

وما فيها من التَّأكيد عليهم في حفظه حين أرسله معهم ثمَّ عند إرسال

أخيه « بنيامين » بعد ذلك أخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك . فالإنسان مأمورٌ بالاحتراز ، فإن نَفَعَ فذاك ، وإلَّا لم يَلُمِ العبدُ نفسه .

* * * *

(٤) ومنها : أنَّ من الحزم إذا أراد العبد فعلًا من الأفعال أن ينظر إليه من جميع نواحيه ويقدِّرَ كُلَّ احتمالٍ ممكنٍ .

وأنَّ الاحتراز بسوء الظَّنِّ لايضرُّ إذا لم يحقِّق بل يحترز من كلِّ احتمالٍ يَخشَى ضرَرَهُ ، ولو تضمَّن ظنَّ السُّوء بالغير إذا كانت القرائن تدلُّ عليه وتقتضيه[1] ، كما في هذه الآية، وكما قويت القرائن في قوله : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

فإنَّه سبق لهم في أخيه ما سبق فلا يُلام يعقوب إذا ظنَّ بهم هذا الظَّنَّ ، وإن كانوا في الأخ الأخير لم يجر منهم تفريطٌ ولا تعدٍّ .

* * * *

(٥) ومنها : الحذر من الذُّنوب .

خصوصًا الذُّنوب الَّتي يترتَّب عليها ذنوبٌ أُخَر ، ويتسلسل شرُّها ، كما فعل إخوة يوسف بيوسف .

فإنَّه نفس فِعْلهم فيه عدَّة جرائم :

---

(١) وعلى هذا الفهم الدقيق لهذه المسألة يُحْمَل ما جاء عن الحسن البصري رحمه الله قوله : « احترسوا من الناس بسوء الظن » رواه ابن سعد في « الطبقات » (٢ / ١٧٧) **بإسنادٍ صحيحٍ** . ولا يصح مرفوعًا . وراجع : « الضعيفة » للألباني (١ / ١٨٦) .

- في حقّ اللّه .
- وفي حقّ والديه وقرابته .
- وفي حقّ يوسف .

ثُمَّ يتسلسل كذبهم كُلّما جرى ذكر يوسف وقضيّته أخبروا بهذا الكذب الفظيع ولهذا حين تابوا وخضعوا وطلبوا من أبيهم السّماحَ :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩٧] .

* * * *

(٦) ومنها : أنَّ بعض الشَّرِّ أهون من بعضٍ .

فحين اتّفقوا على التّفريق بين يوسف وأبيه ورأى أكثرهم أنَّ القتل يحصل به الإِبعادُ الأبديُّ .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : ١٠] .

فخفّف به الشَّرُّ عنهم.

ولهذا لمَّا وردت السَّيَّارةُ الماءَ ، وأدلى واردهم دلوه تبشَّر بوجوده وقال :

﴿ هَذَا غُلَامٌ ﴾ [يوسف : ١٩] .

وكان إخوته حولَه فقالوا : إنَّه غُلامٌ أَبِقَ مِنَّا ؛ وتبايعوا معهم : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : ٢٠] .

وإنَّما قصدهم إبعاده والتَّأكيد على مشتريه منهم ، صورةً أنْ يحتفظ به لئلَّا يهرب .

ومن لطف الله : أنَّ الَّذي أخذه باعه في مصر على عزيزها ، فحين رآه رغب فيه جدًّا وأحبَّه وقال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [الآية : ٢١] .

فبقي مُكرَّمًا عندهم مُعْفًى عن الأشغال الشَّاقَّة وغيرها متجرِّدًا للخير . وهذا من اللُّطف بيوسف ، ولهذا قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [الآية : ٢١] .

فكان تفرُّغه عند العزيز من أسباب تعلُّمه للعلوم النَّافعة ليكون أساسًا لما بعده من الرِّفعة في الدُّنيا والآخرة .

كما أنَّ رؤياه مقدِّمةُ اللُّطْف ، وكما أنَّ الله أوحى إليه حين ألقاه إخوته في الجُبِّ : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الآية : ١٥] .

وهذه بشارةٌ له بالنَّجاة ممَّا هو فيه ، وأنَّه سيصل إلى أن يُنبِّهم بأمرهم وهم لايشعرون . وقد وقع ذلك في قوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [الآية : ٨٩] .

إلى آخر الآيات . وألطاف المولى لا تخطر على البال .

* * * *

(٧) ومنها : أنَّ العبرة في حال العبد بكمال النِّهاية لا بنقص البداية .

وذلك أنَّ إخوة يوسف جرى منهم ما جرى من هذه الجرائم ، لكن في آخر أمرهم ونهايته تابوا إلى الله ، وطلبوا السَّماح من أخيهم يُوسفَ ومن والديهم الاستغفار ، فحصل لهم السَّماح التَّامُّ والعفو الكامل فعفا الله

عنهم وأوصلهم إلى الكمال اللائق بهم .

قيل : إنَّ اللَّه جعلهم أنبياء ، كما قاله غير واحدٍ من المفسِّرين في تفسير الأسباط : إنَّهم إخوة يوسف الاثنا عشر[١].

وقيل : بل كانوا قومًا صالحين ؛ كما قاله آخرون ؛ وهو الظَّاهر ؛ لأنَّ المراد بالأسباط قبائل بنيِ إسرائيل ، وهو اسمٌ لعموم القبيلة لأولاد يعقوب الاثنى عشر فهم آباء الأَسْبَاطِ وهم من الأسْباط .

ولهذا في رؤيا يُوسُفَ رآهم بمنزلة الكواكب في إشراقها وعلوِّها ، وهذه صفة أهل العلم والإيمان واللَّه أعلم .

ولهذا تفسَّرُ رؤيا الشَّمس والقمر والكواكب بالعلماء والصَّالحين وقد تُفسَّرُ بالملوك ، والمناسبة ظاهرةٌ .

* * * *

(١) قال العلامة الألوسي : « الذي عليه الأكثرون سلفًا وخلفًا : أنهم لم يكونوا أنبياء أصلًا ، **أما السلف** : فلم ينقل عن الصحابة منهم أنه قال بنبوتهم ، ولا يحفظ عن أحد من التابعين أيضًا ، وأما أتباع التابعين : فنقل عن ابن زيد أنه قال بنبوتهم وتابعه شرذمة قليلة ، **وأما الخلف** : فالمُفسرون فرق **فمنهم** من قال بقول ابن زيد كالبغوي ، **ومنهم** من بالغ في رده كالقرطبي وابن كثير ، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح كابن الجوزي ، **ومنهم** من لم يتعرض للمسألة لكن ذَكَر مَا يُشْعِر بعدم كونهم أنبياء كتفسيره الأسباط بمن نُبئ من بني إسرائيل والمنزل إليهم بالمنزل إلى أنبيائهم كأبي الليث السمرقندي والواحدي **ومنهم** من لم يذكر شيئًا من ذلك ولكن فسر الأسباط بأولاد يعقوب فحسبه ناس قولًا بنبوتهم وليس نصًّا فيه لاحتمال أن يريد بالأولاد ذريته لابنيه لصلبه ، وذكر الشيخ ابن تيمية في مؤلف له خاص في هذه المسألة ما ملخصه : الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار : أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا بأنبياء وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم خبربأن الله نبأهم ..» الخ « روح المعاني » (١٢ / ١٨٤) .

(٨) ومنها : تكميل يوسف صلوات اللّٰه عليه لمراتب الصَّبر[١]:

الصَّبر الاضطراريُّ : وهو صبره على أَذيَّة إخوته وما ترتَّب عليها من بُعدِهِ عن أبويه وصبره في السِّجن بضع سنين .

والصَّبر الاختياريُّ : صبره على مراودة سيِّدته امرأة العزيز مع وجود الدَّواعي القويَّة من جمالها وعلوِّ منصبها وكونها هي الَّتي راودته عن نفسه وغَلَّقت الأبواب وهو في غاية ريعان الشَّباب ، وليس عنده من قرابته ومعارفه الأصليِّين أحدٌ . ومع هذه الأمور ، ومع قوَّة الشَّهوة ، مَنَعهُ الإيمان الصَّادق والإخلاص الكامل من مُوَاقَعة المحذور .

وهذا هو المراد بقوله : ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [الآية : ٢٤] .

فهو برهان الإيمان الَّذي يغلب جميعَ القُوَى النَّفسيَّةِ .

فكان هو مُقدَّمُ السَّبعة الَّذين يظلُّهم اللّٰه في ظلّه يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه

(١) **فائدة** : قال العلامة ابن القيم : « الصبر ضربان : ضرب بدني وضرب نفساني ، وكل منهما نوعان : اختياري واضطراري . فهذه أربعة أقسام :

الأول : البدني الاختياري كتعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختيارًا وارادة .

الثاني : البدني الاضطراري كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك

الثالث : النفساني الاختياري كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله شرعًا ولا عقلا .

الرابع النفساني الاضطراري كصبر النفس عن محبوبها قهرا إذا حيل بينها وبينه .

فإذا عرفت هذه الاقسام فهى مختصة بنوع الانسان دون البهائم ومشاركة للبهائم في نوعين منها وهما صبر البدن والنفس الاضطراريين

وقد يكون بعضها أقوى صبرًا من الانسان وإنما يتميز الانسان عنها بالنوعين الاختياريين وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذى يشارك فيه البهائم لا في النوع الذى يخص الانسان فيعد صابرا وليس من الصابرين .. » « عدة الصابرين » ص (١٣ ، ١٤) .

وهو رجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجَمالٍ ، فقال : إنِّي أخاف اللَّه[1].

ثمَّ بعد ذلك رَاوَدَتْهُ المرأة وراودته ، واستعانت عليه بالنِّسوة اللاتي قطعن أيديهنَّ فلم تحدّثه نفسه .

ولم يزل الإِيمان ملازمًا له في أحواله ، حتَّى قال بعدما توعَّدته بقولها : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [الآيتان : ٣٢ ، ٣٣] .

فاختار السِّجن على مواقعة المحظور ؛ ومع ذلك فلم يتَّكل على نفسه بل استغاث بربِّه أن يصرف عنه شرَّهنَّ ، فاستجاب له ربُّه فصرف عنه كيدهنَّ ، إنَّه هو السَّميع العليم .

وكما أنَّه كمل مَرَاتِب الصَّبر فقد كمَّل مراتب العَدْل والإِحسان للرَّعيَّة حين تولَّى خزائن البلاد المصريَّة .

وكمَّل مَرَاتِب العفو والكرم حين قال له إخوته : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴾ [الآيتان : ٩١ ، ٩٢] .

فارتقى ﷺ إلى أعلى مقامات الفضل والخير والصِّدق والكمال ونشر اللَّه له الثَّناء بين العالمين .

٥٥٥٥

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) (٩١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

الفصل الرَّابع

(٩) ومنها : أنَّ الإخلاص للَّه تعالى أكبر الأسباب لحصول كُلِّ خيرٍ واندفاع كلِّ شرٍّ .

كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الآية : ٢٤] .

وفي القراءة الأخرى : ﴿ **الـمُخْلِصِينَ** ﴾[1]، أي الَّذين أَخْلَصَهُم اللَّه بخالصة ذكر الدَّار وهما متلازمتان ، فأخلصهم لإخلاصهم له ، فمن أخلص للَّه أَخْلَصَهُ وخَلَّصَهُ من الشُّرور ، وعَصَمه من السُّوء والفحشاء .

* * * *

(١٠) ومنها : ما دلَّت عليه القصَّة من العمل بالقرائن القويَّة من عدَّة وجوهٍ :

* منها : حين ادَّعت امرأة العزيز أنَّ يوسف راودها ، وقال : هي راودتني عن نفسي ؛ فشهد شاهدٌ من أهلها ؛ أي حَكَمَ حاكِمٌ بهذا الحكم الواضح ، وكانت قد شقَّت قميصَ يوسف وقت مراودتها إيَّاه : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ [الآية : ٢٦] لأنَّه يدلُّ على إقباله عليها وأنَّ المراودةَ صادرةٌ منه . ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ [الآية : ٢٧] .

---

(١) يشير المصنف رحمه الله إلى قراءة أبي عمرو وابن عامر وابن كثير ويعقوب . « معجم القراءات » (٢ / ٤٣٨) .

فكان هذا هو الواقع ؛ لأنَّها تريده وهو يفرُّ منها ويهرب عنها فَقَدَّتْ قميصه من خلفه ، فتبيَّن لهم أنَّها هي المُرَاوِدَة في تلك الحال ؛ وبعد ذلك اعترفت اعترافًا تامًّا حيث قالت : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾(١) [الآيتان : ٥١ ، ٥٢] .

* ومن العمل بالقرائن : وجود الصُّواع في رَحْل أخيه وحكمهم عليه بأحكام السَّرقة لهذه القرينة القويَّة .

* * * *

(١١) ومنها : أنَّه ينبغي للعبد أن يبعُدَ عن أسباب الفتن ، ويهربَ منها عند وقوعها .

كما فعل يوسف حين راودته امرأة العزيز .

واعلم أنَّ كثيرًا من المفسِّرين ذكروا في تفسير البرهان الَّذي رآه يوسف حين اعتصم عن الفاحشة إسرائيليّات تنافي العقل والدِّين ، وتنافي ما عليه الرُّسل من الكمال(٢) .

---

(١) راجع : « اغاثة اللهفان » (٢ / ٦٦) وقال ابن القيم في « بدائع الفوائد » (٤ / ٨٢٠) : « فالعمل بالقرائن ضروري في الشرع والعقل والعرف » .

(٢) قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي في « أضواء البيان » (٣ / ٦٠) بعد أن نقل طرفًا من أقوال العلماء في ذلك : « هذه الأقوال التي رأيت نسبتها إلى هؤلاء العلماء منقسمة قسمين : **قسمٌ** لم يثبت نقله عمَّن نُقل عنه بسند صحيح ، وهذا لاإشكال في سقوطه . **وقسمٌ** ثبت عن بعض من ذكر ، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك فالظاهر الغالب على الظن المزاحم لليقين : أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات ؛ لأنه لا مجال للرأي فيه ، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ » اهـ

حيث قال بعضهم : تبدَّى له جبريل في الهوى ، أو تبدَّى له يعقوب عاضًا على إبهاميه أو ما أشبه ذلك من الأمور ، الَّتي لو حصلت على أفجر النَّاس لامتنع من فجوره ، فكُلُّها باطلةٌ .

وكذلك من الأقوال الباطلة : ما قاله بعضهم في قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [الآية : ٢٤] ؛ أي همَّ أن يضربها - وهذا تحريفٌ ظاهرٌ .

وصاحب هذا القول أراد الفرار من الهَمِّ المعروف خَشية أن يكون فيه نقصٌ وتنقيصٌ للأنبياء محذورٌ في ذلك ، فإنَّ الهَمَّ والهوى ونحوها إذا قاومه العبد وقدَّم عليه الخوف والإِيمان فهو كمالٌ .

كما قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦]

وكما ثبت في الصَّحيح مرفوعًا : « مَنْ هَمَّ بسيِّئةٍ فَلَمْ يَعمَلْها كَتَبَهَا اللَّه حَسنةً كاملةً - فإنَّه إنَّما تركها من جرَّائي »[1].

أي تركه لها لأجل اللَّه خوفًا من عقابه ورجاءً لثوابه من أكبر العبادات واللَّه أعلم .

* * * *

(١٢) ومنها : ما عليه يوسف ، صلوات اللَّه عليه ، من الجمال الظَّاهر الَّذي أخذ بلبِّ امرأة العزيز وشغفها حبًا .

---

(١) البخاري (٧٥٠١) ومسلم (١٢٩) ( ) واللفظ له .

وقوله سبحانه : « إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ » هو بفتح الجيم وتشديد الراء وبالمد والقصر لغتان ، معناه من أجلي ؟ قاله النووي « شرح مسلم » (٢ / ١٥٠) .

وحين رأتهُ النِّسوة قطَّعن أيديهنَّ وأكبَرْنه : ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [الآية : ٣١] .

ومن الجمال الباطن وهو العفَّةُ والإِخلاص الكامل والصِّيانةُ .

* * * *

(١٣) ومنها : أنَّه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى اللَّه عند خوف الوقوع في فتن المعاصي والذُّنوب .

مع الصَّبر والاجتهاد في البُعدِ عنها ، كما فعل يوسف ودعا ربَّه قال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ [الآية : ٣٣] .

وإنَّ العبد لا حول له ولا قوَّةَ ولا عصمة إلَّا باللَّه ، فالعبد مأمورٌ بفعل المأمور وترك المحظور والصَّبر على المقدور مع الاستعانة بالملك الشَّكور .

○○○○

الفصل الخامس

(١٤) ومنها : فضل الإيمان الكامل واليقين والطُّمأنينة بالله وبذكره .

حيث اتَّصف بها يُوسُفُ ﷺ فأوجبت له الثَّبات في أموره كُلِّها والاشتغال فيما هو يصدره من وظائفه الحاضرة ، وهو في أحواله وتنقُّلاته مطمئنُّ القلب ثابتُ النَّفس ليس عنده قلقٌ لبعده عن أبيه وأحبابه ، مع ما يعلمه من شدَّة الشَّوق والحُبِّ المفرط بينه وبين والديه خصوصًا أبوه يعقوب ، وهو يعلم المكان الَّذي هو فيه ويتمكَّن من مراسلته ، ولكن اقتضت حكمة اللَّه أن لا يحصل اللقاء إلَّا في تلك الحال الَّتي اشتدَّت مشقَّتها وعظمت شدَّتُها .

فأعانه اللَّه وأيَّده بروحٍ منه ، وهذا من أجَلِّ ثمرات الإِيمان .

* * * *

(١٥) ومنها : أنَّه لا بأس بالاستعانة بالمخلوق في الأمور العاديَّة الَّتي يقدر عليها بفعله أو قوله وإخباره .

كما قال يوسف للَّذي ظنَّ أنَّه ناجٍ منهما : ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الآية : ٤٢]

ومن كمال إخلاص يوسف وكمال خُلُقِه ؛ أنَّه لم يعاتب هذا الَّذي وصَّاه أن يذكره عند ربِّه فنسي ، وجاءه يسأله عن رؤيا الملك ، فأجابه ، ولم يعاتبه أو يعنِّفْه أو يعامله بسوء خُلُقٍ .

وبحسن الخُلُقِ تحصل للعبد الحياةُ الطيِّبةُ العاجلة والآجلة .

(١٦) ومنها : أنَّ الإنسان إذا وُجِّهت له تهمةٌ هو بريءٌ منها لا يُلَامُ على طلب الطُّرق والوسائل الَّتي يحصـــل بها الوضوح والبيان العام للنَّاس

كما فعل يوسف ﷺ مع طول مُكثه لمَّا جاءه الرَّسول يستدعيه للحضور عند الملك ، قال : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ .. ﴾ [الآية : ٥٠] .

إلى آخر الآية ، حيث بان لكُلٍّ أحدٍ براءته التَّامَّةُ الَّتي لا شُبهة فيها فلم يخرج من السِّجن لمواجهة الملك إلَّا في حالة براءته وهيبته ورفعته وتعظيم منهم لعلمه وفضله ونزاهته عليه الصَّلاة والسَّلام .

○ ○ ○ ○

الفصل السَّادس

(١٧) ومن ذلك : أنَّ يوسف ﷺ جمع لهم بين تعبير رؤيا الملك وبين ما ينبغي لهم أن يفعلوه ويدبِّروه في سنين الخصب ، للاستعداد لسنين الجدب

وحين قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [الآية : ٥٤] . أي تتمكَّن من أمور المملكة وتدابيرها ، مفوضٌ إليه الأمور لأمانته وكفاءته وكمال الثِّقة به .

فالملك هو الَّذي ابتدأ توليته وتفويض الأمور إليه .

وهو الَّذي اقترح أن يكون على خزائن الأرض وجبايتها وتصريفها لأجل عموم المصلحة ، ولهذا قال : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [الآية : ٥٥] .

أي أحفظ الحاصلات والغلَّات وأعلم كيفيَّة تصريفها وتدبيرها ، فحينئذٍ أعتني في سنين الخصب بالزُّروعات الهائلة وجباها في مخازنها ، وفي سنبلها ، وأجتهد في الاقتصاد في أكلهم أيَّام السِّنين الخصيبة لتتوفَّر الغلال ويكون لها النَّفْع العامُّ .

فحين جاءت السُّنون المجدبات وعمَّ الجَدْبُ للأقطار المصريَّة وما جاورها من الأقطار ، وفَنِيَ ما عند النَّاسِ جعلوا يقصدون مِصرَ من كُلِّ جهةٍ ، جعل يكيل لهم كَيْلَ العدل والاقتصاد بحسب الحاجة ، لايزيد كُلَّ واحد على حمل البعير خوفًا من ألَّا يحتاجه المحتكرون ويحصل الضَّررُ على المحتاجين المعوزين . ولهذا من جملة ما عالج إخوة يوسف أباهم لإرسال

بنيامين معهم أن قالوا : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ [الآية : ٦٥] .

أي إذا كان معنا حصل لنا زيادةُ كيل بعيرٍ ؛ لأنَّ عائلة يعقوب كَثِيرُونَ يحتاجون إلى ميرةٍ كثيرةٍ ، فحصل لهذه الأعمال الجليلة على يد يوسف نفعٌ للخلق عظيمٌ ، وإزالةُ ضروراتٍ ودفعُ حاجاتٍ وتهوينٌ للشِّدَّاتِ والكُرُبَاتِ .

* * * *

(١٨) ومنها : مشروعيَّةُ الضِّيافة .

وأنَّها من سُنَنِ الرُّسل ، وقرَّرتها هذه الشَّريعة لقول يوسف : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [الآية : ٥٩] .

* * * *

(١٩) ومنها : أنَّ استعمال الأسباب الواقية من العين أو غيرها غير ممنوعٍ بل جائزٌ ، أو مستحبٌّ بحسب حاله .

وإن كانت جميع الأمور بقضاء اللَّه وقدره ، لكن الأسباب الواقية أو الدَّامغة من قضاء اللَّه وقدره ، بشرط أن يفعلها العبد وهو معتمِدٌ على مسبِّبها ؛ لأنَّ يعقوب عليه السَّلام حين أراد أن يوصِي بنيه لمَّا أرسل بنيامين معهم ، قال : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [الآية : ٦٧] .

وأخبر تعالى أنَّهم امتثلوا أمرَ أبيهم ، وأنَّ هذا الأمرَ لم يُغنِ شيئًا إلَّا حاجة

في نفس يعقوب قضاها وهو شفقة الوالد على أولاده ، والشَّريعة جاءت بإثبات الأسباب النَّافعة الدّينيَّةِ والدُّنيويَّة ، والحثّ عليها ، مع الاستعانة باللَّه .

كما ثبت عنه ﷺ أنه قال : « احْرِصْ عَلَى مَا يَنفَعُكَ واستَعِنْ باللَّه »(١).

* * * *

(٢٠) ومنها : جواز استعمال الحِيَلِ والمكائد الَّتي يُتوصَّلُ بها إلى حقٍّ من الحقوق الواجبة والمستحبَّة أو الجائزة .

كما استعمل يوسف ذلك مع أخيه ، حيث وضع السِّقاية في رحل أخيه ، ثُمَّ أذَّنَ مؤذِّنٌ بعد رحيلهم ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ [الآيات : ٧٠ - ٧٦] .

فعمل مع أخيه هذا العمل ليتوصَّلَ به إلى بقائه عنده من غير شعورٍ منهم . فلمَّا تقرَّر عندهم أنَّه هو الَّذي أخذ الصُّواع استفتاهم عن حكم السَّارق في دينهم فقالوا : ﴿ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ [الآية : ٧٥] .

أي جزاء السَّارق أن يتملَّكه المسروقُ منه ؛ فحكموا على أنفسهم هذا

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) ( ) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » .

الحكم الَّذي هو المقصود ليوسفَ . ولو أجرى عليه حكمَ ملكِ مصرَ لكان له حكمٌ آخر .

فيسَّرَ اللَّه هذا العمل وهذا الحكم ليبقى أخوه عنده .

فالحِيَلُ الَّتي على هذا النَّوع لا حَرَج فيها ، وإنَّما المُحرَّمُ الحِيَلُ والمكائدُ الَّتي يُتَوصَّلُ بها إلى إحلالِ المحرَّمات أو إسقاط الواجبات .

* * * *

(٢١) ومنها : استعمال المعاريض عند الحاجة إليها ؛ فإنَّ في المعاريض مندوحةً عن الكذب ، وذلك من وجوهٍ :

* منها : قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ [الآية ٧٥] ولم يقل : سرقها .

* وكذلك : قوله : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [الآية : ٧٩] . ولم يقل : من سرق متاعنا .

وإذا قيل : إنَّ هذا اتِّهامٌ للبريء .

قيل : إنَّما فعل ذلك بإذن أخيه ورضاه ؛ وإذا رضي زال المحذور .

* * * *

(٢٢) ومنها : أنَّ الإنسان لا يحلُّ له أن يشهد إلَّا بما يعلم .

لقولهم : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [الآية : ٨١] .

وإن العلم يحصل بإقرار الإنسان على نفسه ، وبوجود المسروق ونحوه معه وفي يده أو رحله .

(٢٣) وفيها : أنَّ وجودَ المسروقِ بيد السَّارق بيِّنةٌ وقرينةٌ على أنَّه السَّارق .

ولذلك حكم وحكموا على أخي يوسف بحكم السَّارق .

* * * *

(٢٤) ومنها : هذه المِحْنَةُ العظيمة الَّتي امتحن اللَّه بها نبيَّه وَصَفِيَّه يعقوب عليه السَّلام .

حيث قضى بالفراق ، بينه وبين يوسف ، هذه المدَّةُ الطَّويلة الَّتي يغلب على الظَّنِّ أنَّها تبلغ ثلاثين سنةً فأكثر ؛ **من ذلك** : أنَّه بقي مُدَّةً في بيت العزيز قبل السِّجن في الإِمكان أن تكون من سبع السِّنين إلى العشر أو نحو ذلك ، على وجه الحرص والحزر ، ثمَّ مكث بضع سنين في السِّجن والأكثر أنَّها سبع سنين ، ثمَّ بعد خروجه دخلت السَّبع السِّنين المخصبات .

فهذه نحو إحدى وعشرين سنةً ، ثمَّ دخلت السَّبع المجدبات وتردَّد إخوة يوسف إليه مرَّاتٍ ، والظَّاهر أنَّ اللقاء كان في آخرها ، فهذه تقارب الثَّلاثين ونحوها . وهو في هذه المدَّة لم يفارق الحزنُ قلبه ، وهو دائمُ البكاء حتى ابيضَّت عيناه من الحزن وفقد بصره وهو صابرٌ لأمر اللَّه ، محتَسِبٌ الثَّوابَ عند اللَّه ، قد وعد من نفسه الصَّبر ، ولاشكَّ أنَّه وفَّى بذلك .

ولا ينافي ذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الآية : ٨٦] فإنَّ الشَّكوى إلى اللَّه لا تنافي الصَّبر ، وإنَّما ينافي الصَّبرَ الشكوى إلى المخلوق .

(٢٥) ومنها : إنَّ الفرج مع الكُرَب .

فإنه لما اشتد الكرب بيعقوب وقال : يا أسفى على يوسف ، قال : ﴿ يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ [الآية : ٨٧] .

وهم حين دخلوا على يوسف وقفوا بين يديه موقف المضطرّ ، فقالوا : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أي : قليلة حقيرة لاتقع الموقع ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [الآية : ٨٨] .

فحينئذٍ لمَّا بلغ الضُّرُّ منتهاه من كلِّ وجهٍ ، عرّفهم بنفسه ، فحصل بذلك البشارة الكبرى لأبويه وإخوته وأهلهم ، وزال عنهم الضُّرُّ والبأساءُ ، وخَلفَه السُّرور والفرح والرَّخاء .

* * * *

(٢٦) ومنها : أنَّ الله يبتلي أنبياءَه وأصفياءه بالشِّدَّة والرَّخاء .

والسُّرور والحزن واليسر والعسر ، ليستخرج منهم عبوديَّته في الحالين بالشُّكر عند الرَّخاء والصَّبر عند الشِّدَّة والبلاء ، فتتمُّ عليهم بذلك النَّعماء كما ابتلى يعقوب ويوسفَ ، وكذلك غيرهم من أنبيائه وأصفيائه .

* * * *

(٢٧) ومنها : جواز إخبار الإنسان بما يجد ، وما هو فيه من مرضٍ أو فقرٍ أو غيرهما على غير وجه التَّسخُّط .

لقول إخوة يوسف : ﴿ مسَّنا وأهلنا الضُّرُّ ﴾ - وأقرَّهُم يوسف على ذلك .

* * * *

(٢٨) ومنها : فضيلة التَّقوى والصَّبر ، وأنَّ كُلَّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة فمن آثارهما .

وأنَّ عاقبة أهلهما أحسنُ العواقب ، لقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الآية : ٩٠] .

وإنَّ إخبار العبد من نفسه بحصول التَّقوى والصَّبر إذا كان صدقًا وفي ذلك مصلحة من باب التَّحدُّث بنعمة اللَّه .

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضُّحى : ١١] .

تشمل نِعَم الدُّنيا ونِعَم الدِّين ، وأنَّ الله يجمع للمتَّقين بين خير الدُّنيا والآخرة ، كما في هذه الآية والآية السَّابقة وهي قوله : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [الآيتان : ٥٦ ، ٥٧] .

وأنَّه ينبغي على العبد أن يتذكَّر في حال الرَّخاء والسُّرور حالة الحُزن والشِّدَّةِ ، ليزداد شكره وثناؤه على اللَّه .

ولهذا قال يوسف : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ [الآية : ١٠٠] .

(٢٩) ومنها : أنَّه ينبغي للعبد أن يتضرَّع إلى اللَّه دائمًا في تثبيت إيمانه ويعمل الأسباب لذلك .

يسأل اللَّه حسن الخاتمة وتمام النِّعمة ، ويتوسَّل بنعمه الحاصلة إلى ربِّه أن يُتمَّها عليه ، ويحسن له العاقبة .

كما قال يوسف ﷺ : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّالِحِينَ ﴾ [الآية : ١٠١] .

وليس هذا من يوسف تمنِّيًا للموت ، كما ظَنَّه بعضُهم ، بل هو دعاءٌ للَّه أن يحسن خاتمته ويتوفَّاه على الإِسلام ، كما يسأل العبد ربَّه ذلك كُلَّ وقتٍ .

* * * *

(٣٠) ومنها : ما مَنَّ اللَّه به على يوسف من حُسنِ عَفْوه عن إخوته .

وأنَّه عفا عمَّا مضى ووعد في المستقبل أن لا يُثَرِّب عليهم ، ولا يذكر منه شيئًا ؛ لأنَّه يجرحهم ويحزنهم وقد أبدوا النَّدامة التَّامَّة ولأجل هذا قال : ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [الآية : ١٠٠] .

ولم يقل : من بعد أن نزغهم ، بل أضاف الفعل إلى الشَّيطان ، الَّذي فرَّق بينه وبين إخوته . وهذا من كمال الفتوَّة وتمام المروءة .

* * * *

(٣١) ومنها : ما في هذه القِصَّة العظيمة من البراهين على رسالة محمَّدٍ ﷺ

حيث قَصَّها على الوجه المطابق ، وهو لم يقرأ من الكتب السَّابقة شيئًا ، ولا جالَسَ منْ لَهُ معرفةٌ بها ، ولا تعلَّم من أحدٍ ، إنْ هو إلَّا وحيٌ أوحاه اللَّه إليه .

ولهذا قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود : ٤٩] .

كما ذكر اللَّه هذا المعنى في قصَّته وغيره من الأنبياء ؛ لأنَّ الغُيُوب نوعان ؛ أمورٌ سابقةٌ قد اندرس علمها نبَّأه اللَّه بها ، وأمورٌ مستقبلةٌ قد نبَّأه اللَّه بها قبل أن تقع ، فوقعت ، ولا تزال تقع شيئًا بعد شيءٍ مطابقةً لما أخبر به ﷺ في كتاب اللَّه وفي سنَّة رسوله ، وكلُّها براهين على رسالته .

○ ○ ○ ○

الفصل السّابع

(٣٢) وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ دليلٌ على أنَّ هذا وصف النَّفس من حيث هي .

وأنَّها لا تخرج عن هذا الوصف إلَّا برحمةٍ من اللَّه وعنايةٍ منه ؛ لأنَّ النَّفس ظالمةٌ جاهلةٌ ، والظُّلم والجهل لا يأتي منهما إلَّا كُلُّ شرٍّ .

فإنْ رحم اللَّه العبد ومَنَّ عليه بالعلم النَّافع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله خرجت نفسه من هذا الوصف ، وصارت مطمئنَّةً إلى طاعة اللَّه وذكره ، ولم تأمر صاحبها إلَّا بالخير ، ويكون مآلها إلى فضل اللَّه وثوابه .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي * وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

فعلى العبد أن يسعىٰ في إصلاح نفسه وإخراجها من هذا الوصف المذموم وهو أنَّها أمَّارةٌ بالسُّوء ، وذلك بالاجتهاد وتخلُّقها بأحسن الأخلاق وسؤال اللَّه على الدَّوام ، وأن يكثر من الدُّعاء المأثور : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَعْمَالِ وَالأَخْلاقِ ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْت ، وَاصْرِف عَنِّي سَيِّءَ الأَعْمَالِ وَالأَخْلاقِ ، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئها إِلَّا أنت »[1] .

* * * *

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٧٧١) (٢٠١) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه .

(٣٣) وفي تضاعيف القِصَّة فضيلةُ العلم من وجوهٍ كثيرةٍ .

وبيان أنَّه سببُ الرِّفعة في الدُّنيا والآخرة ، وسبب صلاح الدِّين والدُّنيا :

* فيوسف ﷺ لم ينل ما نال إلَّا بالعلم ، ولهذا قال له أبوه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [الآية : ٦] .

* وامتنَّ عليه وقت مكثه عند عزيز مصرَ بالتَّجرُّد للعلم ، وحاز مقام الإِحسان بالعلم .

* وخرج من السِّجن في حال العزِّ والكرامة بالعلم .

* وتمكَّن عند ملك مصر ، واستخلصه لنفسه حين كلَّمه وعَرَف ما عنده من العلم .

* ودبَّر أحوال الخلق في الممالك المصريَّة بإصلاح دنياهم ، وحُسن تدبيره في حفظ خزائن الأرض وتصريفها وتوزيعها بالعلم .

* وعند نهاية أمره توسَّل إلى ربِّه أن يتولَّاه في الدُّنيا بالعلم ، حيث قال : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّالِحِينَ ﴾ [الآية : ١٠١] .

ففضائل العلم وثمراته الجليلة العاجلة والآجلة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

* * * *

(٣٤) وفيها : أنَّ شفاء الأمراض ، كما يكون بالأدوية الحسِّيَّة يكون بأسبابٍ ربَّانيَّةٍ .

بل يحصل بهذا النَّوع من أنواع الشفاء ما لا يَحْصُل بغيره . فيعقوب عليه السَّلام ، قد ابيضَّت عيناه من الحزن وذهب بصره ، فجعل اللَّه شفاءه وإبصارَه بقميص يوسف حين ألقاه على وجهه ، فارتدَّ بصيرًا لِمَا كان فيه من رائحة يوسف الَّذي كان داءُ عينيه من حزنه عليه ، فصار شفاؤه الوحيد مع لطف اللَّه في قميص جسده .

ومن قال : إنَّ القميص من الجنَّة ؛ فليس عنده بذلك دليلٌ .

واللَّه قادرٌ على أن يشفِيَه من دون سببٍ ، ولكنَّه حكيمٌ ، جعل الأمور تجري بأسبابٍ ونظاماتٍ قد تهتدي العقول إلى معرفتها وقد لا تهتدي .

ونظير ذلك أيوب ﷺ ؛ وصل به المرض والضُّرُّ إلى حالةٍ تعذَّر منها الشِّفاء وأعيت الأطباء ، فحيث أراد اللَّه شفاءَهُ أمره أن يركُضَ برجله الأرض فأنْبَعَ له عَينًا باردَةً وأمره أن يَشرَبَ منها ويغتَسِلَ ، فأذهب اللَّه ما في باطنه وظاهره من هذا الضَّررِ ، وعاد كأحسن ما أنت راءٍ .

قال تعالى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤٢] فهو تعالى يشفي العباد بأدويةٍ وأسبابٍ حسِّيَّةٍ وبأسبابٍ ربّانيَّةٍ معنويَّةٍ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

كما أنَّه تعالى يوجِد الأشياء بأسبابٍ حسِّيَّة معلومةٍ ، وبأسبابٍ ربّانيَّة لاتهتدي العقول إليها ، كما في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وآياته النَّفسيَّة والكونيَّةِ ، وهو المحمود على هذا وعلى هذا .

(٣٥) ومنها : جواز سؤال الخلق ، خصوصًا الملوك عند الضَّرورة .

لقول إخوة يوسف : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [الآية : ٨٨] .

فإنَّهم سألوا المحاباة في المعاملة والصَّدقة بدون عِوَضٍ .

وإنَّما قلت : خصوصًا الملوك ؛ لأنَّ الملوك لا يُسألُون من أموالهم الخاصَّة وإنَّما يُسألُون من بيت المال الَّذي هو للمصالح العموميَّة ، وأهمُّ المصالح دفع ضرورةِ المضطرِّين .

* * * *

(٣٦) ومن فوائد القصة : أنَّ الجهل ـ كما يُطلَقُ على عدم العلم ـ فإنَّه يُطلَقُ على عدم الحِلْم ، وعلى ارتكاب الذَّنب .

لقوله تعالى : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ [الآية : ٣٣] . وقوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [الآية : ٨٩] . ليس المعنى في ذلك عدم العلم وإنَّما هو عدم العمل به ، واقتحام الذُّنوب . ومنه قول موسى ﷺ : ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة : ٦٧] . وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : ١٧] .

وكلُّ من عصى الله فهو جاهلٌ باعتبار عدم العمل بالعلم ؛ لأنَّ العلم الحقيقيَّ ما زال الجهل به وأوجب العمل .

(٣٧) ومنها : قوله تعالى : ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ [الآية : ٧٢] .

استُدِلَّ به على ثلاثة أبوابٍ من أبواب العلم : باب الجعالة ، وباب الضَّمان ، وباب الكفالة .

لأنَّ قوله : ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ من نوع الجعالة ، وهو : أن يجعل شيئًا معلومًا أو مقاربًا للمعلوم كحمل البعير ؛ لأنَّه متعارَفٌ لمن يعمل له عملًا معلومًا وعملًا مجهولًا وهي جائزةٌ لما فيها من مصلحة الجاعل والعامل .

وقوله : ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أي ضامنٌ وكفيلٌ ، وهي من عقود التَّوثقة بالحقوق الَّتي يتمُّ بها توسيع المعاملات وإصلاحها .

* * * *

(٣٨) ومنها : أنَّ العمل بالشَّريعة فيه إصلاحُ الأرض والبلاد .

واستقامة الأمور ؛ والعمل بالمعاصي من سرقةٍ وغيرها فيها فسادُ ذلك ؛ لقولهم : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ [الآية : ٧٣] .

وكم في القرآن من التَّصريح أنَّ العمل بالمعاصي ومخالفة الرُّسل فسادٌ للأرض ، ومتابعةُ الرُّسل هو الصَّلاح المُطلَقُ ، صلاح الدِّين والدُّنيا .

* * * *

(٣٩) ومنها : الدَّلالة على الأصل الكبير الَّذي أعاده اللَّه وأبداه في كتابه : أنَّ لكُلِّ نفسٍ ماكسبت من الخير والثَّواب ، وعليها ما اكتسبت من الشَّرِّ والعقاب ، وأنَّه لا تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى .

لقوله : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [الآية : ٧٩] .

* * * *

(٤٠) ومنها : الحَثُّ على فعل الأسباب الجالبة للخيرات والحافظة من الكريهات .

وفي القِصَّة مواضع تدلُّ على هذا الأصل الكبير ؛ وتمام ذلك أن يقوم بالأسباب مستعينًا باللَّه ، واثقًا به .

وقد عمل يعقوب عليه السَّلام الأسباب الَّتي يقدر عليها في استحفاظ أولاده ليوسف ، ثمَّ لأخيه حين أرسله معهم ، وقال مع ذلك : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الآية : ٦٤] .

وكذلك على العبد إذا هَمَّته المصائب وحلَّت به النَّكبات عليه أن يصبر ويستعين باللَّه على ذلك . قال يعقوب ﷺ حين عَمِلَ إخوة يوسف ما عَمِلُوا بيوسف ، وحلَّت به المصيبة الكُبرَى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الآية : ١٨] .

وذلك أنَّ الصَّبر على الطَّاعات والصَّبر عن المحرَّمات والصَّبر على المصيبات لا يتمُّ وينجح صاحبه إلَّا الاستعانة باللَّه ، وأن لا يتَّكل العبد

على نفسه . قال يوسف : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ [الآية : ٣٣] .

○ ○ ○ ○

الفصل الثَّامن

(٤١) ومن فوائد القِصَّة : الإِرْشاد إلى طريقٍ نافعٍ من طُرُقِ الجدال ، والمقابلة بين الحقِّ والباطل .

وهو بيان ما في الحقِّ من الخير والمنافع العاجلة والآجلة ، وما في الباطل من ضدِّ ذلك .

قال تعالى في دعوة يوسف للتَّوحيد : ﴿ يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الآية : ٣٩] .

فذكر ما في الشِّرك من القُبح وسوء الحال واتِّباع الظُّنون الباطلة ، وأنَّ كُلَّ طائفةٍ من الشِّرك لهم معبودٌ ، إمّا نارٌ أو صنَمٌ أو قبرٌ أو ميِّتٌ ، أو غير ذلك من المعبودات المتفرِّقة الَّتي لا تملك لنفسها ولا لأهلها نفعًا ولا ضُرًّا ، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا .

وكلُّ طائفةٍ تُضَلِّل الأخرى ، وكلُّهم ضَالُّون هالكون ، فهل هذه الأرباب والمعبودات خيرٌ أم اللَّه الواحدُ القهَّار ؟

*** فذكر له ثلاثةَ أوصافٍ عامَّةٍ عظيمةٍ :**

١ـ أنَّه اللَّه الَّذي له الأسماء والصِّفات العليا . ومنه النِّعَمُ كلُّها وبذلك استحق أن يكون اللَّه المألوه ، إله أهل الأرض وأهل السَّماء ، وهو الَّذي في السَّماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ .

٢ـ وأنَّه الواحد المتفرِّد بكلِّ صفةِ كمالٍ ، المتوحِّد بنعوت الجلال والجمال الَّذي لاشريك له في شيءٍ من الأفعال .

٣- وأنَّه القهَّارُ لكُلِّ شيءٍ ؛ فجميع العالم العلويِّ والسُّفليِّ كُلُّهم مقهورون بقدرته ، خاضعون لعظمته ، متذلِّلون لعزَّته وجبروته ، فَمَنْ هذه صفاتُه العظيمة هو الَّذي لا تنبغي العبادة إلَّا له وحدَه ، لا شريك له .

* * * *

(٤٢) ومنها : أنَّ الدِّين المستقيم ، الَّذي عليه جميعُ الرُّسل وأتباعُهم هو عبادة اللَّه وحدَه لاشريك له .

لقوله : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الآية : ٤٠] .

فهو الدِّين المستقيم ، المُقِيمُ للعقائد والأخلاق والأعمال ، الَّذي لا تستقيم أمور الدِّين والدُّنيا إلَّا به .

* * * *

(٤٣) ومنها : وجوب الاعتراف بنعم اللَّه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة .

لقوله : ﴿ ذَلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ [الآية : ٣٨] .

فهو الَّذي مَنَّ بالعافية والرِّزق وتوابعِ ذلك ، وهو الَّذي مَنَّ بنعمة الإِسلام والإِيمان والطَّاعة وتوابع ذلك . فعلى العبد أن يعترف بها بقلبه ، ويتحدَّث بها ويستعين بها على طاعة المنعم .

* * * *

(٤٤) ومنها : أنَّ الإِحسان في عبادة اللَّه والإِحسان إلى العباد سببٌ يُنَالُ به العلم وتُنَالُ به خيرات الدُّنيا والآخرة .

لقوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الآية : ٢٢] .

وقوله : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [الآيتان ٥٦ ، ٥٧] .

فجعل اللَّه الإِحسان سببًا لِنَيلِ هذه المراتب العالية .

* * * *

(٤٥) ومنها : أنَّ النَّظر إلى الغايات المحبوبة يهوِّن المشاقَّ المعتَرِضَةَ في وسائلها .

فمتى علم العبد عاقبةَ الأمر وما يؤول إليه من خير الدُّنيا والآخرة هانت عليه المشقَّةُ ، وتسلَّى بالغاية ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الآية : ١٥] .

فأُوحِيَ إلى يُوسُف في هذه الحال المزعجة أنَّ الأمر سيكون إلى خيرٍ وسعةٍ ، وبعد هذه الإِهانة الصَّادرة من إخوتك لك ستكون لك الأَثَرَةُ عليهم والعاقبةُ الحميدة .

وفي هذا من اللطف والتَّسلية وتخفيف البلاء ما هو من أعظم نِعَم اللَّه على العبد .

ولهذا المعنى الجليل يذكِّرُ اللَّه عبادَهُ عند المشاقِّ والأمور المزعجة ما

يترتَّب على ذلك من الثَّواب والخير والطَّمع في فضله .

قال تعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ ﴾ [الآية : ١٥] دليلٌ على رجوعهم كلِّهم إلى رأي من قال : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ ﴾ [الآية : ١٠] .

كما أنَّ قوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ [الآيتان : ٣٣ ، ٣٤] دليلٌ على أنَّ النِّسوة ساعدن امرأة العزيز على يوسف ، وجعلن يُغْرينه بهذا العمل ، فبعدما رأَين من جمال يوسف الباهر ما رأين أصبحنَ لِامرأةِ العزيز مساعداتٍ بعد أن كُنَّ قبل ذلك عاتباتٍ عليها بقولهنَّ : ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الآية : ٣٠] .

* * * *

(٤٦) ومنها : أنَّ العُقُودَ بما يدلُّ عليها من قولٍ وفعلٍ ، لا فرقَ بين عقودِ التبرُّعات وعقود المعاوضات .

لأنَّ يوسف ﷺ ملَّك إخوته بضاعتهم الَّتي اشتروا بها ميرتهم من حيث لايشعرون ، ولمَّا فَتَحُوا متاعَهُم وجدوا بِضَاعتهم في رحالهم ، الآية ، وذلك من دون إيجابٍ وقبولٍ قوليٍّ ؛ لأنَّ الفعل والرِّضى يدلُّ على ذلك .

o o o o

الفصل التَّاسع

(٤٧) **إذا قيل** : كيف خَفِيَ موضعُ يوسفَ على يعقوب وما بينه وبينه إلَّا مسافةٌ قليلةٌ مع طول المدَّة وقوَّة الدَّاعي المُلِحِّ وعلمه أنَّه على الوجود وحرصه الشَّديد على لقياه ؟

فالجواب : ليس ذلك بغريبٍ على قُدْرَة اللَّه ، فإنَّ الأسباب ، وإن قويت جدًّا ، لا خروج لها عن قضاء اللَّه وقدره ؛ فإنَّ اللَّه تعالى أراد ألَّا يحصل الاجتماع إلَّا في الوقتِ الَّذي أجَّله والحالةِ الَّتي أرادها ، لما له في ذلك من الحِكَمِ العظيمة ، ومتى أراد اللَّه شيئًا في وقتٍ مخصوصٍ قَدَّر من الأسباب الحسِّيَّة أو المعنويَّة ما يمنع حصوله قبل ميقاته ، كما يقدر من الأسباب ما يحصل به ما أراد ؛ فالأسباب بيد العزيز الحكيم .

* وليس هذا بأغرب من قضيَّة بني إسرائيل في التِّيه ، وهم أُمَّةٌ عظيمةٌ والتِّيه مسافةٌ قصيرةٌ ، وهم بين أظهري قرى ومدن كثيرةٍ .

والمدَّةُ أربعون سنةً ، لم يهتدوا طريقًا إلى مقصدهم ، ولم يتيسَّر لهم من يرشدهم إلى قصدهم .

* وكذلك أصحاب الكهف مكثوا في كهفهم ثلثمائة وتسع سنين وهم في غارٍ قريبٍ من مدينةٍ عظيمةٍ لم يصل إليهم أحدٌ في هذه المدَّة الطَّويلة لأمرٍ يُريده اللَّه .

فهذه الأمور وما أشبهها دليلٌ على كمال قدرة اللَّه وحكمته ، مع أنَّ يُوسُفَ ﷺ بقي مُدَّةً اللَّه عَلِمَ بها وهو في بيت العزيز ، ثمَّ مُدَّةً وهو في

السّجن ، ثُمَّ ترقّى إلى تدبير الملك . ومتى يخطر ببال أحدٍ أن ينتقل من الرّق والسّجن إلى الملك العظيم ؟ ثمّ إنّه وقت تولّيه يغلب على الظّنّ أنّه اشتهر عند النّاس باسم المنصب والوزير للملك ، ولا يكاد أحدٌ يعرف اسمه ، كما هو الغالب على الملوك وأشباههم ، ولهذا تردّد إخوته عليه فعرفهم وهم لا يعرفونه ، لما هو فيه من بهجةِ الولاية ؛ وأيضًا قد فارقوه وهو صغيرٌ ولم يروه إلّا بعدما كبر . ومعلومٌ أنّ أوصاف الإنسان تتغيّر إذا وصل إلى سنّ الكهولة ، واللّهُ أعلم .

هذا من جهة يعقوب وأولاده ، أمّا من جهة يوسف فإنّه قد علم وقصد التّأخير ليبلغ الكتاب أَجَلَه ، ولهذا تردّد عليه إخوته وقد عرفهم ولم يعرّفْهم بنفسه ، ولم يستدعِ بأبويه وأهله إلّا في نهاية الأمر .

○○○○

الفصل العاشر

(٤٨) قوله تعالى عن يعقوب في أوّل ما صنع أبناؤه بأخيهم يوسف : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الآية : ١٨] .

وقوله عندما اشتدَّ به الأمر ، حين احتبس الابن الآخر : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [الآية : ٨٣] .

في هذا دليلٌ على أنَّ أصفياء اللّه إذا نزلت بهم الكوارث والمصيبات قابلوها في أوَّل الأمر بالصَّبر والاستعانة بالمولى ، وعندما ينتهي وتبلغ الشدَّة منهاها ، يقابلونها بالصَّبر والطَّمع في الفرج والرَّجاء فيوفِّقهُم اللّه للقيام بعبوديَّته في الحالتين .

ثمَّ إذا كشف عنهم البلاء قابلوا ذلك بالشُّكر والثَّناء على اللّه وزيادة المعرفة بلطفه لقول يوسف : ﴿ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [الآية : ١٠٠] .

* * * *

(٤٩) ومنها : قوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [الآية : ٧٩] .

يدلُّ على : أنَّه لا تزر وازرةٌ وزر أخرى ؛ ويؤخَذُ منه مسألةٌ دقيقةٌ ، وهو أنَّ الإِحسان إنَّما يكون إحسانًا إذا لم يتضمَّن فعل مُحَرَّمٍ أو تركَ واجبٍ ، فإنَّهم طلبوا من يوسف أن يُحسِنَ إليهم بترك هذا الأخ أن يذهب إلى أبيه ويأخُذَ أحدهم بَدلَه ؛ فامتنع وقال : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [الآية : ٧٩] .

فالإِحسان إذا تضمَّن تركَ العدل كان ظُلمًا ، ولهذا كان تخصيص بعض الأولاد على بعضٍ ، وبعضِ الزَّوجات على بعضٍ ـ وإن كان إحسانًا إلى المخَصَّص والمفضَّل ـ لا يجوز لأنَّه تركٌ للعدْل ، وكذلك ما أشبه ذلك ، واللَّه أعلم .

* * * *

(٥٠) ومنها : أنَّ آيات اللَّه أنَّما ينتفع بها السَّائل المستهدي الَّذي قَصْدُه معرفة الحقِّ واتِّباعه .

لقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [الآية : ٧] .
أمَّا الغافلون المعرِضون أو المعارضون المعانِدون فإنَّه يصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .
فالنظر في آيات اللَّه المتلُوَّة وآيات اللَّه الكونيَّةِ تنفع مَنْ قَصْدُه الحقُّ .

كما قال تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ ﴾ [المائدة : ١٦]

وكم في القرآن تقييدُ الانتفاع بهذا القَيد مثل :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ لَآيَاتٍ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ ﴿ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ و﴿ ٱلْأَبْصَارِ ﴾ .

* * * *

(٥١) ومنها : أنَّ المشاورةَ نافعةٌ في كلِّ شيءٍ حتَّى في تخفيف الشَّرِّ .

لهذا تشاور إخوة يوسف فيما يعملون به : قتلٌ أو طرحٌ في الأرض ، ثمَّ قَرَّ رأيُهم على رأيٍ من أشار عليهم بإلقائه في الجُبِّ ليلتقطه بعض السَّيَّارة . ففيه شاهدٌ للقاعدة المشهورة : ارتكاب أخفِّ المفسدتين أولى من أغلظهما .

ولما قَرَّ القرار على أخذ من وُجِدَ الصُّواعُ في رحله وعالجوا يوسف على أخذ بدله لأجل ما يعلمون من مشقَّة أبيهم فامتنع خَلَصُوا نجيًّا يتشاورون فقرَّ رأيهم على رأي كبيرهم أنْ يبقى هو في مصر يُلاحِظُ مسألة أخيه وهم يذهبون يميرون أهلهم ويخبرون أباهم بالقضيَّة وتفصيلها .

ولاشكَّ أنَّ بقاءه في مصر أهون على يعقوب وأرجى لتحصيل المطلوب وفيه نوعُ مواساةٍ منه بأخويه يوسف وبنيامين ، ولهذا قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الآية : ٨٣] .

o o o o

الفصل الحادي عشر

(٥٢) إنَّما لم يصدِّق يعقوب بنيه حين قالوا : أكله الذِّئب ، وعملوا تلك القرائن المبرِّرة لقولهم .

لأنَّ المعلوم لا يعارضه الشَّكُّ والوهم ، فإنَّه قد علم برؤيا يوسف ، وربَّما بغيرها ما يؤول إليه حال يوسفَ من تمام النِّعمة الَّتي تشمله وتشمل آل يعقوب ؛ وفيها أيضًا أنَّه لاينبغي أن يغترَّ بمجرَّدِ صورة القرائن .

ولمَّا أتى إلى « شريحٍ » امرأةٌ مع خصمها أرسلت عينيها بالبكاء فقال لشريحٍ بعض الحاضرين : ما أظنُّ البائسة إلَّا مظلومة .

فقال شريحٌ : ألم تسمع قصَّة إخوة يوسف إذ أتوا أباهم عشاءً يبكون هل كانوا مظلومين أو ظالمين ؟[1]

فكم حصل بمثل هذه التَّمويهات من الاغترار وقلب الحقائق ؟

لهذا كان الأذكياء يجعلون كلَّ احتمالٍ على بالهم ، وينظرون إلى الأمور من جميع جهاتها ونواحيها .

* * * *

(٥٣) وتدلُّ القصَّةُ على : أنَّ الولايات الكبار والصِّغار لابدَّ لمتولِّيها أن يكون كُفُوًا في قوَّته وأمانته وعلمه بأمور الولاية .

لأنَّ المَلِك لمَّا كلَّم يوسف ورأى من علمه وخبرته بالأمور وحسن نظره

---

(١) الطرق الحكمية (١ / ١٦) .

استخلصه لنفسه وقال : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [الآية : ٥٤] وقال يوسف : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [الآية : ٥٥] .

فعلَّل ذلك بكمال حفظه لما تحت يده وتصرُّفه ، وكمال علمه بوجوه المستخرج والمنصرف ، وحُسْن التَّدبير ، وليس في هذا طلب الولاية ابتداءً كما قال كثيرٌ من أهل العلم ، بل إنَّه لما رأى الملكَ استخلصه ومكَّنه من الأمور ، وأنَّ الأمور كلَّها تحت طوعه وتدبيره ، طلب من الملك تولِّي خزائن الأرض ، فقط لأنَّها أهمُّ ، ولأنَّه يعلم أنَّ ولايته لها أنفع للملك وللخلق ، وهذا من كمال نُصحِهِ وصدق نظره .

○○○○

الفصل الثّاني عشر

(٥٤) لما قصّ اللّه تعالى علينا هذه القِصّة العجيبة بتفاصيلها قال في آخرها : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الآية : ١١١] .

فنفى عن هذا القرآن الكذبَ والخطأَ من جميع الوجوه .

ووصفه بثلاث صفاتٍ ، كلّ واحدةٍ منها فيها أكبر برهانٍ على أنّه من عند اللّه ، وأنّه الحقُّ الّذي لا ريب فيه .

الصّفة الأولى : أنّه تصديق الّذي بين يديه أي من الكتب المنزلة من السّماء ومن كلام الرّسل المعصومين الّذي أوحى اللّه إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ جَاءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ٣٧] .

فهذا القرآن الّذي جاء به محمّدٌ ﷺ جاء بالحقّ وهو الصّدق في إخباره عن اللّه وعن ملائكته وعن اليوم الآخر ، وعن جميع الغيوب السّابقة واللاحقة ، العدل في أحكامه ، فلا يأمر إلّا بخيرٍ ولا ينهى إلّا عن الشّرّ .

كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] صدقًا في أخبارها عَدلًا في أحكامها وأوامرها ونواهيها .

وأيضًا : فإنّ هذا القرآن صَدّق جميع ما جاءت به الرّسل وهيمن عليها ، واتّفق منها على الأصول العظيمة والشّرائع الكبار العامّة الشّاملة ، وأيضًا فإنّ الرّسل أخبروا وبشّروا بمحمّدٍ ﷺ وبما جاء به محمّدٌ ﷺ فصدق مخبرها وحقّت بشارتها .

الصِّفة الثَّانية : أنَّه تفصيلٌ لكلِّ شيءٍ ، وهذا شاملٌ لجميع ما يحتاجه الخَلقُ في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم الظَّاهرة والباطنة ، وفي دينهم ودنياهم .

فقد شرح اللَّه به وفصَّل التَّوحيد والرِّسالة والجزاء ، وجميع العقائد الصَّادقة الصَّحيحة شرحًا وتفصيلًا عظيمًا لا يساويه في ذلك أيُّ كتابٍ كان وفصَّل فيه الحثَّ على حقائق الإيمان ، وعلى التخلُّق بالأخلاق الجميلة والتنزّه من الأخلاق الرَّذيلة ، وبيَّن الطَّريق والأسباب الَّتي يحصل حسنها والَّتي يُدفَعُ به سيّئُها .

كما فصَّل الشَّرائع الظَّاهرة والأعمال الصَّالحة والحلال والحرام والخير والشَّرّ . وفصَّل فيه جميع المقاصد والغايات النَّافعة ، الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ؛ وفصَّل ما يُتَوصَّل به إليها .

وفصَّل فيه البراهين العقليَّة ، كما فصَّل فيه البراهين السَّمعيَّة .

الصِّفة الثَّالثة : أنَّه هُدًى ورحمةٌ لقوم يؤمنون ؛ يهدي به اللَّه من اتَّبع رضوانه سبل السَّلام .

﴿ إنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتي هِي أَقْوَم ﴾ أي لِكُلِّ حالةٍ قويمةٍ وطريقةٍ مستقيمةٍ ؛ يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق ، ويهدي لمصالح الدِّين كلِّها ، ومنافع الدُّنيا الَّتي بها يقوم الدِّين وتتمُّ السَّعادة .

والفرق بين الهدى والرَّحمة : أنَّ الهدى هو الوسائل والطُّرق الموصِّلة إلى خيرات الدُّنيا والآخرة ، والرَّحمة هي نفس الخيرات والثَّواب العاجل والآجل .

فسعادة الدُّنيا والآخرة متوقِّفةٌ على اتِّباع هذا القرآن علمًا وعملًا .

وخصَّ اللَّه المؤمنين بالهدى والرَّحمة ؛ لأنَّهم هم المنتفعون على الحقيقة وبإيمانهم اهتدوا وزادهم اللَّه هدًى ورحمةً .

فهذا القرآن بصائر للنَّاس كُلِّهم ، بصَّرهم جميع ما يحتاجون إليه ، فلم يبق خيرٌ إلَّا دلَّهم عليه ، ولا شرٌّ إلَّا حذَّرهم منه ، فقامت به الحُجَّةُ على كُلِّ أحدٍ . ولكنَّه هدى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون .

اللهمَّ تفضَّل علينا بالإيمان الصَّادق ، واجعل هذا القرآن هدًى ورحمةً ، إنَّك أنت القريبُ المجيب . وصلَّى اللَّه على محمَّدٍ وسلَّم .

* * * *

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى اللَّه
عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي
غفر اللَّه له ولوالديه
وجميع المسلمين
آمين .

وافق الفراغ منه في صفر سنة ١٣٧٥ هجرية

فهرس الموضوعات

○○○○